كلمة في القرآن

[إلى كبار العلماء ، ومشيخة القراء ، وجماعة الأزهر المعمور]

للأستاذ علي الطنطاوي

قال لي صديق عالم في بعض حديث كان بيني وبينه : ما بال أحدنا يأخذ ديوان المتنبي مثلاً ، فما يدع قصيدة منه واحدة حتى يقتلها فهماً ، ويحيط بأسرارها علماً ، ويغوص على جواهر معانيها ، ويتبع خفيف إشاراتها ، وبعيد كناياتها ، حتى ينتهي إلى مراد الشاعر منها ، وقد تنطبع على صفحة قلبه آراء الشاعر فيؤمن بها إيماناً ، ويتخذها قدوة وإماماً ، وربما بدل ذلك من خلائقه ، وعدل من سلائقه . مع أن ديوان المتنبي ، وإن علت في الكلام مرتبته ، وسمت في البلاغة منزلته ، لا يعدو أن يكون كلام مخلوق يخطئ ويصيب ، وليس من شأنه أن يكون كتاب هدًى ولا إرشاد ... ثم نتلو القرآن آناء الليل وأطراف النهار ، فلا يأمرنا ولا ينهانا ، ولا يكون له أثر في حياتنا ، والقرآن كلام الله رب العالمين ، أنزله رحمة وهدى للناس أجمعين ؟

تأملت فوجدت كلامه حقاً ، فأطلت التفكير فيه ، فرأيت النقص إنما دخل علينا من أنفسنا لا من القرآن ، والقرآن لم يزل على ما كان عليه يوم أخرج من الأمة البدوية الجاهلة خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وأعطاها مقاليد الأرض ، ففتحت بها ما بين مشرقها والمغرب ... فما له اليوم وما لنا ؟ وكيف غدونا وأمورنا في يد كل واغل علينا ، يغلبنا كل متغلب ، ويستنسر في أرضنا البغاث ، ومن إذا استغاث لا يغاث ، وإن أتى في عقر بيته لم يملك دفعاً ولا منعاً ؟

النقص منا لا من القرآن ، فلو أنا أخذنا القرآن على وجهه ولم نعدل به عما أنزل له ، لم نذل ، والقرآن بين أيدينا ، وبالقرآن عز من عز من أسلافنا

نزل القرآن آمراً وناهياً ، ومذكراً وواعظاً ، وكان للمسلمين دستوراً وقانوناً ، فلم نفهم منه إلا أنه كتاب تبرك ، نتخذه تمائم ورقى ، أو نتلوه تلاوة تطريب وتلحين ، وتطرية وتليين ، نؤخذ بحلاوة صوت القارئ ، وبراعة إتقانه ، وحسن تصرفه في ألحانه ، ولا ننتبه الانتباه المطلوب إلى المعاني ، ولا نخشع الخشوع اللائق بمن يسمع كلام الخالق ، وإن كنتم في شك من الأمر فاسألوا من يفتح (الراد) ليسمع قراءة الشيخ محمد رفعت ، أكان يسمع لو قرأ غيره ممن لم يؤت الجرس الحلو ولا اللحن الطرب ؟ واسألوهم ألا تهزهم (سحبة) صبا ، أو (حطة) على الرصد ، أكثر مما تهزهم معاني كلام جبار السموات والأرضين ؟

أما إنه لا جدال في وجوب ترتيل القرآن وتجويده ، وضبط مخارجه وأحكامه وأدائه ، أما أن يكون القصد من الإصغاء إليه الطرب ، والغاية من تلاوته الإطراب ، فلا ، ثم لا ... وما مثل من يفعل ذلك إلا مثل ضابط في الجيش بعث إليه القائد برسالة فيها بعض أمره ونهيه ، فلا هو ائتمر ولا انتهى ولا فهم معناها ولا حاول ، وإنما قبلها ووضعها من التعظيم على جبينه ثم تلاها خمسين مرة ، يتغنى بها ويرتلها ، ثم جعلها تميمة تعلق على الصدر . . . ولله المثل الأعلى !

وقد حدثني الصديق الفاضل الأستاذ عبد المنعم خلاف أن في مصر قارئاً (سماه ونسيته) إذا قرأ أعطى المعاني حقها ففخم وهول عند وصف العذاب ، ورقق وجمل عند ذكر النعيم ، وحكى رنة صوت المستفهم والمتعجب عند الاستفهام والتعجب ، فإذا صار إلى آخر الآية ختمها بلحن قليل ، فلماذا لا يدعى هذا القارئ إلى المذياع ليسمعه الناس فيكون قدوة للقارئين صالحة ؟ إن القائمين على أمر الإذاعة يحسنون صنعاً إذا سألوا الأستاذ خلافاً عن اسمه ودعوه ... وأنا واثق أنهم لن يفعلوا !

هذه هي حال القراء ، جعلوا القرآن كالغناء ، بل ربما عدوه سلماً إلى الغناء ! ألا ترى إلى بعض المطربات المصريات المشهورات ، كيف ابتدأن قارئات ، فارتقين حتى صرن مغنيات ؟ أو لا ترى أن من كتاب الرسالة من ذكر المغنين مرة فعد الشيخ محمد رفعت في أهل الغناء ؟

ثم إن في القراء خصلة أخرى

ذلك أن منهم من أولع بالقراءة على السبع ، في المساجد والجامع ، يكرر الآية الواحدة على الأوجه المختلفة ، فلا يأتي من ذلك إلا فتنة العامة ، وتشكيك الجهلاء ، وما يخالط القارئ من العجب والزهو ، وذلك ما لا يستحبه الشرع . ولقد ثبت في الحديث أن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، تسهيلاً على العرب المختلفة لغاتهم ، وكانوا يقرؤون عليها جميعاً ، حتى إذا كان زمان

عثمان رضى الله عنه ، وسيطرت لغة قريش أو كادت ، وتوحدت اللغات ولم يبق للسبعة الأحرف من فائدة إلا اختلاف الناس ، أمر عثمان بالاقتصار على واحد منها ومنع ما عداه ، وكتب المصحف الإمام وبعث به إلى الأمصار ، واقتصر الناس على الحرف الواحد حتى نشأ النحاة وأهل اللغة والقراء ، فوقع بينهم اختلاف يسير فى حركة أو إمالة أو مد أو همز فكان من ذلك القراءات السبع ، وهى على حرف واحد وليست على الأحرف السبعة كما يظن بعض من لا علم له ...

فإذا كان عثمان قد أمر بالاقتصار على حرف واحد من الحروف السبعة المنزلة ضماناً للمصلحة ، فلم لا نقتصر على قراءة أو قراءتين فقط من القراءات السبع نقرأ بها فى المساجد والمجامع ، وندع لمن شاء من المتخصصين أن يحفظها ويرويها كلها من غير أن يذيعها على العامة الذين لا يعرفون إلا قراءة حفص فى المشرق كله وورش عند المغاربة ؟

هذا رأى فيه المصلحة ، وهو من روح الشريعة التى تكره الاختلاف والفتنة أرجو من سادتنا العلماء المقلدين المقدسين لكل ما درجوا عليه الثائرين على كل رأى جديد ، أن يفكروا ويتثبتوا قبل أن تقوم قيامتهم علىّ !

أما العامة وأشباههم فإن أكبر همهم أن يستكثروا من التلو ولو أهملوا قواعد التجويد ، ويتسابقون إلى الختمة ، ولو قرؤوا شاردة أذهانهم ؛ حتى أن لى عمة عجوزاً تقرأ كل يوم ختمة وتفخر بذلك ، مع أن عمر بن الخطاب وهو أعلم من عمتى — ولو لم تقر بذلك — أنفق دهراً فى البقرة حتى قرأها قراءة فقيه متدبر ... وسبب هذا التسابق على الاستكثار من المقروء اعتقادهم أن التالى بكل حرف عشر حسنات ولو قرأ قراءة ببغاوية ...

ولندع هؤلاء ولنعرج على العلماء فنسألهم إذا لم يكونوا ممن يحرم الاجتهاد ، ويرى أن الأئمة قد استنبطوا من القرآن كل شىء ، ولم يبق إليه حاجة إلا إستنباط ... البركة !

نسألهم : كيف يتدبر القارئ الآيات التدبر المطلوب ، وليس عند المسلمين إلى اليوم تفسير لمعانى القرآن مختصر ، حاوٍ لأسباب النزول والناسخ والمنسوخ ، وبيان المحكم والمتشابه ، خالٍ من فروع النحو والبلاغة ومسائل الفلسفة ، مبرأ من الأكاذيب والإسرائيليات وتضارب الروايات فى وضوح عبارة وبيان إشارة يفهمه النبى قبل الذكى ، وطالب العلم قبل العالم ! ومتى يظهر التفسير الذى انتهى إلينا من سنوات عزم إدارة الأزهر على إخراجه للناس ، وأنها ألّفت له لجنة وسمّت لها رجالاً ؛ فما صنع الله بلجنته ورجالها ؟

وإذا لم تكن لجنة أفلیس فى العلماء من يستطيع أن يؤلف هذا التفسير لمعانى القرآن ، لا كتفسير الجلالين المخل باختصاره ولا كالنسفى المقصور على النحو ، ولا كالكشاف المعنىّ بالبلاغة ، ولا كالفخر الرازى المترع بالفلسفة والعلوم والإشكالات والردود ، ولا كالخازن الفياض بالاسرائيليات المكذوبة ، ولا كالطبرى الذى يشتمل على الروايات الكثيرة المختلفة ، ولا كتفسير طنطاوى جوهرى الذى حشد فيه من قضايا العلم الطبيعى التى لم يكن من أهلها ما لم يدع مكاناً للتفسير ، ولا كتفسير المنار المطول الذى يشبه دائرة معارف تحتاج إلى عمر كامل ، بل يأخذ من كل مزاياه ويجتنب عيوبه ، ويضم على ذلك ما لم يكن يدركه المتقدمون

هذا ولم نزل نسمع بالإعجاز ، ونعرف عجز العرب وهم شياطين البلاغة وصَرَدة القول ، عن أن يأتوا بمثل سورة من القرآن برغم التحدى الموجع ، والاستفزاز البيّن ، وقد قرأنا ما كتب فى بيان الإعجاز وأسراره من لدن عبد القاهر والباقلانى إلى الرافعى ولكنا لا نزال نجهل أسرار الإعجاز ، ولا نجد فى كل ما كتب ما يبرئ من علة ، أو يشفى الغلة ، على طول البحث ، وامتداد الزمان ، حتى كدت أقول بالصرفة كما قال المعتزلة ، فمتى يؤلف فى الإعجاز الكتاب الذى يضع أيدينا على سره حتى تلمسه لمساً ؟

إن كتاب الرافعى فى حسن عرضه ، وبلاغة عبارته ، وصفاء ديباجته ، يكاد يكون معجزاً لكتاب العصر عن تأليف مثله ، ولكن اقرأه ، ثم أطبق الدفتين ولخص لى رأيه فى الإعجاز ، وقل لى ما هى (نظريته) فيه ؟ وهل تشبع الباحث ، وتروى ظمأ الحيران ؟

* * *

هذا وإن ما تقدم من تصحيح التلاوة ، والتفسير والبحث فى الإعجاز ، إنما هى مقدمات ، وجوهر الموضوع فى دعوة العلماء إلى العودة إلى القرآن والسنة ، ودرسهما دراسة المجتهد الفقيه المتبصر ، واستنباط الأحكام منهما ، وتنقية عقائد المسلمين مما يخالفهما ، والفتوى بهما لا بالمر وحواشيه ، ولا بأقوال أئمة المذاهب ، فإنهم على ما بذلوا رحمهم الله وما أحسنوا ، إنما راعوا